المرأة تفاحة شهية

عينان واسعتان وضاءتان:

رجل خجول صغير القد، شفته السفلى تبرز إلى الأمام، فتكسو وجهه جهامة يزيد منها شارب خشن ولحية شعثاء، خدان ضامران وقسمات تنم عن عجوز متعب فى الثامنة والسبعين من عمره، ولكن فى هذا الوجه المهدم لازالت تلمع عينان واسعتان وضاءتان، تتأججان بنار ينعكس وهجها على تجاعيد الجلد الشاحب من حولها، عينان لن يهدأ لها قرار، حتى عندما يحين عن قريب للموت وقت، عينان سوف تظلان تحومان بالأماكن الحبيبة طويلًا حتى بعد أن يستقر الجسد فى التراب.

جلس العجوز فى كرسى ذى عجلات، وقد تغضن جسده كله مثل بردية قديمة، معذب بآلام الروماتيزم، الجراحة تلو الجراحة أجريت على قدميه وساقيه وذراعيه، يداه ملتويتان متقلصتان ناحلتان مثل جذور لفّاء لشجرة سرو دب فيها الموات، وأصابعه مشوهة عاجزة، وحول الكفين لفت ضمادات من الكتان حتى تمنع الأظافر انامية من أن تنغرس فى اللحم، وبين إبهام اليد اليمنى وسبابتها استقرت فرشاة الألوان، راح العجوز يحركها بألم على قماش اللوحة أمامه، يضع لمسات. ثم كى يتفادى

مشقة تناول فرشاة أخرى نظيفة يغمر تلك التى كان يستخدمها فى زجاجة من زيت النفط، حركة اليد آلية هامدة شبحية، تدفعها العين إلى العمل، وتمدها بقوة من عندها، بهذه العين كان رينوار طوال حياته يرسم، وقد اتصفت نظرته بالصفاء لذى يتحلى به طفل، لايـرد على تعبيـره عن سعادته الغامرة قيد، وكما يطلق الطفل ضحكاته من روح تفيض بالفرح والبهجة، كان رينوار يصور لوحاته، كان فنه يشبه فى تلقائيته تكون ندفة تلج، أونماء زهرة حقل، أو أغرودة عصفور.

ولد أوجست رينوار فى الخامس والعشرين من فبراير عام ١٨٤١ فى ليموج القريبة من بواتيه، وفى الرابعة من عمره رحل إلى باريس مع أبيه الذى كان يعمل حائكًا للثياب، وإزاء فقر والديه اضطر للعمل فى ورشة للخزف، على أن رينوار مالبث أن وجد نفسه مفصولاً من عمله كمزخرف لأوانٍ خزفية، وذلك عندما أقبل الجمهور على منتجات الآلة. فانصرف رينوار يكسب عيشه فى مجال آخر، أخذ يرسم تصاوير شيقة على مراوح السيدات وعلى الستائر، وعلى أسقف المطاعم الشعبية، ثم ترك رينوار كل هذا، والتحق بمرسم مصور أكاديمى ليتعلم كيف يصور لوحات حقيقية، وكان رينوار يجمع أنابيب الألوان التى يلقى بها رفاقه الأثرياء جـانبًا، ويستخدم ما بقى فيها ليرسم دروسه.

أن أعشقها بحرية:

فى أوائل ١٨٦٤ أغلق المرسم لأن صاحبه دب المرض إلى عينيه.. فلجأ رينوار ورفاقه إلى غابة فـونتينبلو لاذوا بالـطبيعة، وأعلنـوا أنها أستاذهم الأوحد، مع مشرق الشمس يخرجون إلى الغابة، يتفرقون بين

شعابها وأنحائها. ويصورون الطبيعة مباشرة وصراحة.

ذات مساء عرض رينوار على صديقه الفريد سيسلى لوحة صورها فى الصباح، صرخ فى سيسلى قائلا «كيف تسول لك نفسك أن تصور هكذا؟ كيف تصور شجرة زرقاء وحقولاً بنفسجية؟» فأجابه رينوار مستدركًا «بدت لى الطبيعة هكذا هذا الصباح.. أو إن شئت قل إن هذه الوضاءة هنا فى صدرى، إن الفن يا صاحبى، علاقة ولا يمكن إلا أن يكون كذلك. لا شىء قاطع ونهائى كل ما نراه نسبى، وهل هناك ما هو أكثر نسبية من اللون ياسيسلى؟» فقال له سيسلى «لكننا قد آلينا أن نكون قدر الإمكان موضوعيين يارينوار» وأجابه رينوار موضحا «الشجرة ذاتها تتغير ألوانها تبعًا لتغير الإضاءة فى كل لحظة من لحظات النهار، الشجرة فى الفجر، ليست هى الشجرة فى الظهيرة، وليست هى مرة أخرى الشجرة فى الأصيل، وهذه الألوان التى تراها فى لوحتى، يجب ألا تدهشك. وأيضا يجب ألا تعطيك انطباعًا بعدم الصدق، بل على العكس فأنا عاشق للطبيعة، ولكننى أيضًا أعشقها على طريقتى» وسأله صديقه «وما هى طريقتك يارينوار؟» فأجاب «أن أعشقها بحرية، الفن عبادة ياصديقى وليس استعبادًا».

أرفض كل تعاسة:

كان رينوار دائب الضحك من أعماق القلب، ويخفى على الدوام متاعبه وفاقته، إنه لا يحب الشكوى وينفر من الشكائين، إنه ليس من أولئك الذين يعتبرون اختيارهم للتصوير استشهادًا، ويطالب الناس بأن تنحنى له إكبارًا، إنه لا يعتبر أحدًا مدينا له بشىء وليس من ناحيته، رغم

فقره وصعوبة موقفه، بحاجة إلى العون من أحد.

يقول رينوار «فما فى القلب يجب أن يظل فى القلب، ولا شأن للغير بما يدور فى القلب.. لم يكن أحد يشترى عملاً من أعمالى، وكان الفقر يحاصرنى، وذات مرة طلبت من إدارة أحد المطاعم أن أصور لها لوحة مهرج كبيرة لتعلق فى قاعة المطعم، وبعد أن أنجزتها ذهبت لتسليمها وقبض الثمن ممنيا نفسى بعشاء طيب بعد عدة أيام من التقشف الإجبارى، وعندما وصلت وجدت أن المطعم قد أغلق أبوابه وأشهر إفلاسه فعدت من حيث أتيت بلوحتى».

ويمضى رينوار قائلاً «إننى أرفض كل التعاسة التى فى هذه الحياة، أنا الفنان الفقير الذى لا أملك فى غرفتى شيئًا على الإطلاق، أرفض الفقر، وأريد للعالم أن يكون فى ثراء لوحاتى، فى بهائها، فى عنائيتها؛ فى ألوانها، فى نعومتها، وأيضا فى حسيتها، فليستمتع العالم بلمس البشرة النسائية، فليستمتع بلمس ثمرة الخوخ، فليذق وليرشف الجمال والمتعة، وليسقط الفقر والذل، وليفرح الإنسان، فعلى الأرض السلام وبالناس المسرة، هذه هى أعمق الحكم، وهذه هى فلسفتى، إذا كنت فقيرًا، لا أبيت إلا عند رفاقى من الفنانين، وأجلب من صديقى مونيه كسرة خبز جاف لعشائى، فإننى قد عرفت الفقر وإننى أتمرد عليه، لا باسمى فحسب، بل باسم الناس جميعًا، ولتكن لوحاتى.. للناس جميعًا.. الأمل. التنهيدة.. الحلم الابتسامة.. الشوق. وأيضا فرحة الحياة، وزهرة العمر، حتى الصبار يورق ويزهر أيضًا، لماذا؟ لأن هذه الزهرة هى المعنى الذى وجدت من أجله الشجرة والذى بغيرها ما أصبح لوجودها فى كل هذا الفقر المدقع والهجير الحارق، والشقاء والتعاسة معنى، أحب الوجنات الوردية، والشفاه

الندية، أحب الطفل النضر، أحب المرأة الفاتنة، وأحبها أكثر عندما تتزين بالثياب والمساحيق والقبعات الدانتي، والأحذية المخملية والقفازات الحريرية والأقراط والقلائد، أحب المرأة أيضًا تستحم وتتعطر، لن أرسم فى لوحاتى فقرًا، ولا جوعًا، ولا مرضًا، لأننى أعرف الفقر والجوع. وأحس بالأوجاع فى مفاصلى وعظامى أيضًا، قد لا تكون لهذه المتع التى أودعها لوحاتى قيمة ذات بال بالنسبة لمن يعرفها فعلا، وشبع منها، ولكن بالنسبة لمن كان محرومًا مثلى فهى تعنى الكثير. عندما تحب فتاة مثل ليزا، تمثلت فيها الطبيعة بكل نضارتها ونعومتها وفيضاناتها وثمرها ودفئها وأريجها، ثم لا تستطيع أن تتقدم إليها إلا بيدين خاويتين وقلب يتحرق شوقًا للوفاء وعجزًا عن تحقيقه، حتى يأتى فى النهاية غيرك ليظفر بها زوجة له، لأنه أقدر منك على نفقات زوجة وأطفال، عندئذ تستطيع أن تتبين لماذا تأتى لوحاتى بهذا الجمال، ومن هى ليزا؟ إنها فتاة من عامة الشعب، عاملة لدى حائكة ثياب، أو بائعة فى محل للزهور، أو عارضة فى متجر، إنها رمز لكل فتاة أحلام لايقدر فتاها أن يقدم لها شيئًا، أتذكرون قصة صديقنا موبسان «هدية عيد الزواج»؟ الزوج باع ساعته كى يشترى لزوجته الحبيبة مشطا تمشط به ثروتها الوحيدة من الشعر الغزير.. والزوجة قصت شعرها وباعته إلى أحد الحلاقين لتشترى لزوجها الحبيب فى عيد زواجهما سلسلة لساعته الثمينة التى لا يملك أغلى منه.. هذه هى ليزا.. وهذا هو أنا» تنهد رينوار ثم استطرد يقول «تزوجت ليزا مهندسًا معماريًا صديقًا لزوج أختها، ماذا كان بوسعى أن أفعل؟ وماذا كان بوسعها أن تفعل؟ بمناسبة قرانها صورتها فى لوحة أهديتها لها، إنها صورة الوداع، ولهذا فقد انسكبت فيها رغما عنى قطرات حزن من روحى، ولكننى وطدت عزمى

منذ صباى المبكر أن أقبل الحياة كما هى بسرائها وضرائها، بكل ألاعيبها، وأن أمضى بلا ضغينة بلا حقد، بلا حسرة على مالم تنلنى الحياة. إياه. وكل يوم ألتقط بصيصًا من الحقيقة: الإنسان على المسرح، ويد المخرج خلف الكواليس تحرك الرواية، ولهذا فإن الأحزان عندى لا تدوم.. ومتاعبى لا تعكر نظرتى العذرية إلى الحياة، أتعرفون ماذا أنتظر من الغد؟ باقة ورد! من يدرى؟! لم تكن ليزا من نصيبى. لكن حبى لها لم يذهب هباء، ذات يوم رسمت الصبية تمسك بمظلة، ترتدى قفازًا، وثوبًا قطنيًا أبيض، وقبعة رشيقة.. عينان سوداوان، بحيرتان لامعتان، استقرتا دافئتين فى بشرة بيضاء مثل الثلج، تقف ليزا فى لوحتى وسط غابة، استقرت فى مكانها ساكنة، كما لو كانت تتحدى قدرًا، تصد يدًا خفية تريد أن تزحزحها عن لحظة الحاضر المصفاة من الهموم، وتدفعها إلى قلق المستقبل وهواجسه»، وأردف رينوار مؤكدًا. «تعرفون؟ أننى مثل الممثل الهزلى، عليه أن يؤدى دوره ويضحك الجمهور فى ذات الليلة التى يموت فيها أعز الناس إليه، إنه يجب أن يلقى بحزنه وراء ظهره، وأن يقدم فنه».

النجاح شىء غريب:

النجاح شىء غريب، يأتى فى اللحظة التى لا تتوقعها، وينتشلك من وهاد اليأس التى ترديت فيها، ها هى مجلة «الحياة العصرية» تخصص لرينوار وأعماله دراسة مستفيضة، بعد أن كان مجرد ذكر اسمه وصمة للصحيفة التى تذكره بالخير، انتهت أيام الحاجة والحرمان، فمع النجاح جاء الرخاء وراجت الأعمال وصار الصالون يقبل أعماله بانتظام، وأقام

له ديران - رويل عدة معارض موفقة، نالت نجاحًا ساحقًا فى مايو ١٨٩٢ على الأخص، واشترت الدولة الفرنسية لوحته «فتيات يعزفون على البيان» لعرضها فى متحف اللوكسمبورج ومنذ عام ١٨٩٣ صار تاجر اللوحات امبرواز فويار صديقًا له ومن أكبر المروجين لأعماله، وفى عام ١٩٠٠ منحته الدولة وسام الليجيون دونير، وفى عام ١٩٠٤ خصص صالون الخريف قاعة كاملة لأعماله، وفى عام ١٩١٣ عرضت واحدة وأربعين لوحة من أعماله فى معرض تانهاوزر ببرلين، وفى فبراير ١٩١٤ عرض ديران رويل أعماله بقاعته الجديدة بنيويورك، بل وفى ذلك العام أيضًا وجدت لوحة من لوحاته طريقها إلى اللوفر، وعاد ديران رويل يعرض أعماله بنجاح فى نيويورك عام ١٩١٧ ثم عاد ١٩١٩، ماذا يريد المرء من نجاح وماذا يطمح إليه من تقدير أكثر من هذا؟

متعب يشقيه طموحه:

تقول زوجة رينوار عنه «إنه متعب. يشقيه طموحه إلى مثل أعلى يسعى إليه بدأب وإصرار ومثابرة.. وفى كثير من الأمسيات يأتى إلى البيت ثائرًا مكدودًا، إن لقاءاته برفاقه الانطباعيين فى مقاهيهم أصبحت تسبب له عناء، فقد بدأت تظهر فردية كل منهم، وتختلف آراؤهم ومشاربهم، ويتبادلون الاتهامات والنقد الجارح، على الرغم من أن مصيرًا واحدًا يجمعهم جميعًا، ديجاه يقول لرينوار: إن نساءك البدينات المرفهات ينضحن كسلاً ودعة.. إنهن جميلات وكفى، وإنه لجمال أجوف، انظر إلى فتيات الباليه عندى ستجد أن العالم الجميل الذى شيدته أنا يخفى تحت طياته الشقاء الذى تكابده تلك الفتيات ليظهرن على المسرح مثل

فراشات مضيئة كل ليلة، عضلات سيقانهن تنضح عن مقدار الجهد الذى بذلنه لإتقان حركاتهن، أما نساؤك أنت يارينوار. فهن لحم مترهل، مساحيق من الألوان تغطى البشرة الملساء النضرة، نساؤك يارينوار تقترب كثيرًا من نساء روبينز، ولكن مع الفارق إن نساء روبينز أسطوريات، ونساؤك أنت عصريات فقدن نكهة الأزمان الخوالى، ويأتى زوجى إلى البيت مثبط الهمة غاضبًا، فأسرى عنه، وألاطفه، وأعيد إليه ثقته بنفسه. وقد رأيت أن الأنسب له هو الابتعاد عن أوساط هذه المقاهى قليلاً فزينت له أن نذهب لنحيا فى الريف، فأنا قروية أصلاً، وأقنعته أن السهر لا يعود عليه إلا بالضرر، فصار يستيقظ فى الصباح مبكرًا، ويجلس إلى لوحاته نشطاً، وتبدو نساؤه المستحمات كما لو كن قد جئن ألى لوحاته مع مشرق الإنسانية»، وتستطرد زوجه قائلة «أعرف رينوار. إن الجسد الأنثوى ليس مجرد غاية، بل مجرد تكئة، مجرد وسيلة، للسمو إلى سماوات رحيبة، وهذا ما يضفى على لوحات مستحماته وعارياته قداسة ما كانت تتحقق له لو ظل مأسورًا منشغلاً بكتلة اللحم التى أمامه، إنه يقول: إنه بحاجة إلى بشرة لا تصد شعاع الشمس عنها، أما ما عدا ذلك فهو من عمله، ولهذا فإن مستحمات رينوار مخلوقات من نوع آخر، إنهن يفجرن ما فى القلب الإنسانى من توق إلى الصحة الموفورة وإلى الشباب السخى وإلى نضارة لا يطولا الذبول أو المرض، ولذلك أمكن أن يكون عالم رينوار عالمًا يقف عند مفرق الطريق بين الواقع والمثال، بين الموضوعية والخيال، وربما أيضا دون أن يتعمد، فهو يتعدى دون وعى منه اليومى العابر إلى الابدى الذى لا يتطرق إليه الزوال، هذا هو كنز الفقير رينوار، الذى بدأت الأسقام تدب إلى جسده سريعًا وتخلف له الأوجاع».

ومضت آلين تقول: «عندما ولدت أول أبنائنا فى الحادى والعشرين من مارس ١٨٨٥ لم يكن لدى زوجى ما يسدد به أجر الطبيب المولد الدكتور لاتى، وقد سأله زوجى متحرجا ما إذا كان يتنازل ويقبل أن يسدد جزءا من أتعابه لوحات، وعلى الرغم من أن الطبيب لم يكن يفهم فى أمور الفن شيئًا إلا أنه قبل تأدبًا منه وتساهلاً أن يقدم له رينوار بعض أعماله، وكم كانت فرحة رينوار بابنه الصغير، لقد كان زوجى يحمل على الدوام قلبًا صافيًا مثل قلوب الأطفال، وبدأت تصاوير الأمومة والطفولة تظهر فى إنتاجه، وقد انغمست ألوانها وخطوطها فى بهجة القلب الوديع الذى يحمله بين ضلوعه».

انظر إلى جمالى:

فى صيف عام ١٨٧٣ صور رينوار لوحة «المقصورة» رجل وامرأة جاءا إلى المسرح، اكتملت للمرأة زينتها، من ملابس وزهور وحلى، ولكن أجمل دررها فى عينيها وشفتيها وشعرها الكستنائى الذى تهدلت خصلاته على جبينها، لم تأت المرأة إلى المسرح كى تشاهد مايجرى على المسرح، بل أتت لتشهد الناس جمالها، إنها هى العرض، وليست المسرحية، وقد اتصفت هذه اللوحة برصانة ألوانها والاقتصاد فيها ذلك الاقتصاد اللونى الذى تجده فى روائع سابقة لأساتذة كبار مثل: تيتيان وروبينز وفاتور، كما كان التكوين أيضا بسيطًا مقتصدًا فيه، وسهلاً لكنه السهل الممتنع حقًا، إن الرجل فى الخلف ينظر من خلال منظاره إلى بعيد، أما المرأة فقد كانت زينة الحفل، تنادى فى صمت كمن تقول «انظروا إلى.. إلى جمالى أنا، أنا الحياة، وأنا الفن معًا.. هل نزلت هذه الشخصية من لوحة باللوفر؟ كلا،

كانت امرأة من الطريق، التقطها أدمون شقيق رينوار الأصغر الذى كان قد أخذ يشق طريقه بنجاح لا بأس به فى الصحافة، ويمد أخاه الأكبر ببعض القروض من وقت لآخر، تعرف الصحفى على نينى وعرفها بالفنان.. الذى صنع منها شخصية من أجمل الشخصيات النسائية فى تاريخ الفن التشكيلى كله.

تعرف إذ ذاك إبداع الخالق :

ولنستمع إلى رسالة رينوار: يجب أيها الفنان أن تسبح للجمال، أن تؤمن بالله من خلال بدائع صنعه، عندما ترى الجسم الإنسانى فى كماله، لا يسعك إلا أن تعجب بالخالق المبدع، عندما ترقى البشرة إلى النعومة والوضاءة.. عندما تشع من العينين ألوان. عندما تتفجر الوجنات والشفاه بدفء الحياة وتنتشى استدارات الجسد بحرارة العافية تعرف إذ ذاك إبداع الخالق، نحن من نمسك بالقلم والفرشاة، واتخذنا من الألوان والخطوط لغة للتعبير، ألا يكفينا أننا نتعبد فى محراب طبيعته؟ إننى عندما أصور فتاة جميلة أرفع لله من أعماق قلبى تسبيحة صادقة.. إننى إنسان لا أجرى وراء مفاهيم غامضة أو مبهمة، إنى واضح محدد، أحب أن أرى الأشياء فى ضوء الشمس إن نور النهار هاد إلى مواطن الجمال، هل تعرف ماذا تعنى نزهة فى حقل مزهر؟ نشوة غامرة، صفاء للقلب من أدران حياة الانغلاق بين جدران وأسوار. وهل هناك سعادة أكبر من التحرر والانطلاق فى أحضان الطبيعة من شجر وماء وزهر وجبل؟ إنها الحرية، أسمى ما يتوق إليه القلب الأبى، وقد كنت على الدوام فنانًا أقدس حريتى.

كان رينوار من أشد النفوس صفاء وإلى النهاية ظلت عيناه تبحثان عن الجمال،حتى بعد أن أصاب الشلل يديه ورفضتا العمل، وفى سنواته الأخيرة كان يجلس فى كرسيه المتحرك، معذبًا بآلام الروماتيزم، ولكن إلى قسمات وجهه تتسلل ابتسامة مريحة غريبة، وتتمتم شفتاه المتهدمتان تقولان «حقًا إننى إنسان محظوظ إذ أجبر على البقاء فى مكان واحد، الآن، أستطيع ألا أفعل شيئًا سوى أن أرسم».

واظب رينوار على مهمته فى إبداع الجمال، على الرغم من آلام بدنه حتى آخر أيام حياته، وفى السابع عشر من ديسمبر ١٩١٩ نهض من فراش مرضه بعد ليلة ليلاء من السعال الحاد، ثم جلس إلى قماش لوحاته، وأعد العدة كى يرسم «إناء للزهر» قال لمساعده «أعطنى قلمًا، من فضلك» ذهب المساعد إلى الحجرة المجاورة ليجلب الأقلام، وعندما عاد كان أوجست رينوار قد رحل!!